نحن والتاريخ
٥
الجزء الخامس
للصف السابع الأساسي
التاريخ الواضح
بالمشاهدة والتطبيق
للسنة التاسعة من التعليم الأساسي
٩
التاريخ الواضح
بالمشاهدة والتطبيق
السنة الثامنة
من التعليم الأساسي
٨
دار النهضة الأهلية

جاد كرم

أدلَجة المجتمع، من الطفولة إلى الشهادة...
عمق استراتيجي مُمنْهَج

أمم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

جاد كرم

أدلَجة المجتمع، من الطفولة إلى الشهادة... عمق استراتيجي مُمنْهَج

تمهيد

على وقْع الحرب المتمدّدة إلى الداخل اللبناني، منذ أيلول الماضي، وفيما أطفال البيئة الشيعية يرزحون تحت وطأة التهجير، يُطرح السؤال حول مستقبل جيل كامل من طائفة أُلِفَت المبايعة الحزبية منذ نعومة أظافر أطفالها.

ليس سرًّا أن المجتمع الشيعي في التاريخ الحديث، تحوّل من مجتمع متنوّع الانتماءات ككل الطوائف اللبنانية الأخرى، ويتمتّع بحيوية سياسية، إلى مجتمع حديدي يتّبع نمطًا مركزيًّا في السلوكيات والمفاهيم التي يتمُّ إسقاطها من رأس هرم التنظيم الحزبي المسيطِر داخل الطائفة، على القاعدة الجماهيرية التي أصبحت متشرّبة للعقيدة الدينية والحزبيّة ومتّبعة إياها في سلوكياتها اليومية.

ومما لاشك فيه أن هذه الحرب من المرجَّح أن تُلقي بثِقلها على الأطفال ومنهم أطفال الشيعة أيضًا. ففي ١٥ تشرين الأول تحدّثت الأمم المتحدة عن نزوح ٤٠٠ ألف طفل وحذّرت من «جيل ضائع» في الدولة التي تواجه أزمات متعدّدة. وبطبيعة الحال فإن الجيل الضائع تربويًّا، قد لا يجد تعبئة فراغه التعليمي بأدلَجة أكثر تجذّرًا تعيد المبايعة لحزب الطائفة من خلال تعزيز ثقافة الخوف على المصير، واعتبار أن تحلُّل الدولة يخلق مبرر امتشاق السلاح للدفاع عن غريزة البقاء السياسية.

وقد تكون هذه الحرب بداية لمرحلة مختلفة جدًّا في البلاد. فكيف يتمّ، والحال هذه احتواء هذه الأجيال التي تمّت تربيتها بشكل عقائدي وتماهيًا مع العسْكرة في نهاية المطاف.

من الحيويّة إلى الجمود

يُظهر السرد التاريخي للحيوية السياسية عند الشيعة، أن شخصيات كـ«صبري حمادة»[١] في بعلبك و«كامل الأسعد»[٢] في الجنوب لعبا دورًا سياسيًّا واجتماعيًّا استمرّ إلى ما بعد بروز نجم السيد موسى الصدر[٣].

بعد ذلك، برزت الأيديولوجيا الدينيَّة عام ١٩٧٨ على يدِ مجموعةٍ من رجال الدِّين وكوادرَ شيعيَّة كحركةٍ إسلاميَّة بخلفيَّة أيديولوجيَّة إيرانيَّة، هذه الأيديولوجيا التي كانت الإرهاص الأول لنشوء ما سيُطلق عليه لاحقًا «حزب الله». وكانت تلك الأيديولوجيا مرتكزة في أحدِ مكوّناتها على مبدأ «ولاية الفقيه». ففي عام ١٩٧٨ عاد عباس الموسوي، الأمين العام الثاني لحزب الله، من النجف إلى بعلبك، وأنشأ فيها حَوْزَةً دينيَّةً وبدأ نشر الدّعوةَ من البقاع. وتزامن ذلك مع وصولِ رجال دين وعسكريين إيرانيين، متسلّحين بدعمٍ من الخميني، المنفي في فرنسا، فأقاموا مراكز تدريب دينيَّة وعسكريّة. ومع الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، لجأت طهران إلى تعبئةِ الشبّان اللبنانيين وتدريبهم لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي وتَبِعَاته. وهذا التاريخ سوف يُصبح لاحقًا جزءًا أساسيًا من سردية تأسيس «حزب الله» كحركة مقاومة لمقارعة إسرائيل.

(يراجع في هذا الخصوص كتاب: تاريخ شيعة لبنان من الماضي الغامض الى المستقبل المجهول، اصدار «أمم»).

ومع تأسيس إيران لـ«حزب الله» الذي يُعتبر أحد أهمّ مظاهِرِ تصديرِ الثورة الإسلاميَّة[٤]، تحوّل الشيعة من مجتمع متعدّد الانتماءات، إلى مجتمع حديدي، مع ما يستوجب ذلك من آليات ووسائل تبدأ بالتنشئة منذ الطفولة بشكل تعبوي، لتصل في نهاية المطاف إلى إنتاج جيل متشرّب للعقيدة ينخرط في صفوف «حزب الطائفة»، أو بالحد الأدنى في الموقع الجماهيري المؤيّد والمناصر لـ«حزب الطائفة»، أي «حزب الله».

ومن أجل بناء المجتمع الذي يخدم الأهداف العامة للحزب المسيطِر داخل الطائفة، عمد «حزب الله» إلى العمل على استيعاب الأطفال وتنشئتهم على أيديولوجيته. وكان هذا الأمر مسألة أساسية بالنسبة إليه، كونه يُسهم في بناء قاعدة شعبية تبدأ من عمر الطفولة، وهذا يشبه ما تقوم به التنظيمات الحديدية، من فاشية وغيرها. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يتعيَّن على أساتذة الصفوف الابتدائية في الصين «غرس بذور حُبِّ الحزب والبلد والاشتراكية في القلوب الصغيرة»، وِفق بيان للحكومة والحزب حول المنهج الجديد نُشر، في تقرير

شبيبة هتلر في نورنبرغ ١٩٣٧، المصدر بريدجمان

على إذاعة «مونتي كارلو الدولية». ويمكننا أن نجد هذا الأمر معتمَدًا أيضًا عند إعداد الشبيبة النازية في فترة حُكم الزعيم الألماني أدولف هتلر لألمانيا.

(١) صبري حمادة: ابن آل حمادة، العشيرة الشهيرة في جبل لبنان والهرمل. كان أول رئيس لمجلس النواب بعد الاستقلال عام ١٩٤٣، وقد تولى رئاسته خمس مرات. توفي عام ١٩٧٦. (يراجع في هذا الخصوص كتاب: تاريخ شيعة لبنان من الماضي الغامض الى المستقبل المجهول، اصدار «أمم»).

(٢) كامل أحمد الأسعد: وُلد عام ١٩٣٢، وهو سياسي شيعي عاملي. تولى رئاسة مجلس النواب ثلاث مرات، وانتُخب نائبًا في العديد من الدورات. عُيّن وزيرًا في حكومات متعدّدة. يحمل اسمه شقيق جدّه عبد اللطيف، كامل خليل الأسعد. توفي عام ٢٠١٠.

(٣) موسى الصدر رجل دينٍ شيعي وُلِدَ في إيران عام ١٩٢٨، حصل على الجنسيَّة اللبنانيَّة في عهد الرئيس فؤاد شهاب واستقرَّ في لبنان عام ١٩٥٩، حيث أصبح أحد الزعماء المؤثّرين في الساحة السياسيَّة اللبنانيَّة. عمل على تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وترأّسه منذ عام ١٩٦٧، كما أسَّس أفواج المقاومة اللبنانيَّة «أمل» بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥. في عام ١٩٧٨، غادر لبنان إلى ليبيا برفقة الصحافي عبّاس بدر الدّين والشيخ محمّد يعقوب للقاء الزعيم الليبي العقيد معمّر القذّافي. وفي ٣١ آب من العام ذاته، انقطع التواصل معهم، ولا يزال مصيرُهم مجهولًا حتى اليوم. (يراجع في هذا الخصوص كتاب: تاريخ شيعة لبنان من الماضي الغامض الى المستقبل المجهول، اصدار «أمم»).

(٤) في أحدى المقالات المنشورة على موقع الامام الخميني دوت إي آر، يرد هذا التوضيح حول مفهوم تصدير الثورة: «وعلى ضوء ذلك فإنّ مفهوم تصدير الثورة يعني تصدير مفاهيم وقيم الإسلام؛ استجابة للمسؤولية الشرعية في الدعوة إلى الإسلام، وإيصال مبادئه إلى جميع البشر. وتصدير الثورة ليس معناه ممارسة القوّة، وإنّما ممارسة الإرشاد والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو تصدير للثورة السياسية والثقافية.» إلا ان الممارسة السياسية الذي اظهرتها تجارب هذا التصدير توحي بما هو أكثر من ذلك.

بالاستناد إلى ما نُشر عن «الحزب الشيوعي الصيني» يأخذنا إلى القول إنه يُفرض على كل الأطفال الالتحاق بمنظمات الشباب، حيث يتدرّبون على المسيرات الجماعية ويتشرّبون المفاهيم الحزبية. وقياسًا على حالة «الحزب الشيوعي الصيني»، يتميّز «حزب الله»، بوصفه حزبًا عقائديًّا، عن التنظيمات غير العقائدية، بأنه يفضّل تربية القاعدة الشعبية أكثر من استقطابها، على قاعدة أن إحكام السيطرة على الجمهور الذي سبق وخضع لعملية تعبئة وتشرّب فكرية حديدية هي أسهل وأكثر ضمانًا على المدى البعيد للجمهور المستقطَب.

وعليه، لا بد من المرور على مُخرَجات المؤسّسات التربوية ووسائط الترفيه وترسيخ العقيدة، والإضاءة على دورها في تأطير المجتمع ليصبح مبايِعًا للنهج والعقيدة بما يتماهى بشكلٍ مطلق مع الفكر الحزبي السائد في هذا المجتمع.

المؤسّسات التربوية نموذجًا

منذ ما قبل نشأة الكيان اللبناني لعبت الإرساليات الأجنبية وما أرسَتْه من مؤسّسات تربوية، دورًا في تشكيل بيئة متعدّدة الثقافات، بمناهج متميّزة عن المحيط العربي لناحية إتقان اللغة الفرنسية، واللغات الأخرى تِبعًا لنَهج الإرساليات القائمة، واستخدام الوسائط والوسائل التعليمية المتنوّعة. فمنذ القرن الثامن عشر، بدأت المدارس التابعة للإرساليات الأجنبية بالانتشار، والتي وإن كانت تبشيرية بمعظمها، فقد أرسلت الكثير من العائلات المسلمة، المقتدِرة ماديًا، أبناءها إلى تلك المدارس، وكان للشيعة حصّة منها.

وإذا أردنا النظر إلى واقع الشيعة في العملية التربوية، وبعد ما ذُكر عن التحاقهم بمدارس الإرساليات لا بدّ من التطرُّق إلى مدرسة، شكّلت نقطة فارقة في تشكُّل هويّة تعليميّة للطائفة الشيعية في لبنان. فقد أُنشئت المدرسة «العاملية»[٥] في بيروت أواخر عشرينات القرن الماضي، تحت مسمّى «الكلّية العاملية» وكان الهدف منها على ما حدَّد مؤسّسها رشيد بيضون، هو تعليم شباب جبل عامل (في الجنوب اللبناني)، والشيعة المتواجدين في العاصمة اللبنانية، وذلك من أجل العمل على رفع مستوى الشيعة الثقافي والاجتماعي. وساهم أيضًا في إنشاء «المهنية العاملية» بمشاركة دولة ألمانيا الاتحادية (الغربية سابقًا) التي تبرّعت بتقديم التجهيزات والمعدّات وإرسال مدرّبين وفي إدارة المؤسّسة، مع «جمعية العمل الاجتماعي» المُقامة في منطقة حارة حريك، بمحاذاة طريق مطار بيروت في العام ١٩٦٠.

رشيد بيضون مؤسس «الكليّة العاملية»

كما كان للشيعة مجموعةً من المدارس «الخاصة» الأخرى التي أخذت أشكالًا متنوّعة، منها مدارس المبادرات الفردية أو الجمعيات على ما ذُكر أعلاه، وقد انخرط أبناء الطائفة أيضًا في المدارس الرسمية التي بدأت بالانتشار بشكل واسع في مناطقهم منذ بداية حقبة الانتداب الفرنسي، على ما ورد في الكتاب الذي صدر عن جمعية «أمم» للأبحاث والتوثيق، تحت عنوان «شيعة لبنان والتعليم».

لكنّ المتغيِّر في الواقع التربوي الشيعي بدأ منذ عام ١٩٩٣، عندما جرى تأسيس «مدارس المهدي» وتبِعتها «مدارس المصطفى» كمؤسّسات تربوية لا تُدار من أفراد أو مؤسّسات خاصة فحسب، إنما تُدار من حزب ديني، أي «حزب الله» الذي عمل على بثّ أفكاره الأيديولوجية في صفوف الناشئة كي يُصبحوا في ما بعد، المدماك الأول في هرَم البناء الحزبي، بعدد يتجاوز الـ ٣٠,٦١٨ تلميذًا.

مدارس المهدي

من هنا، دخل إلى مشهد المؤسّسات التربوية عند الشيعة مؤسّسة تربوية جديدة تعمل على «أدلَجة» المجتمع، وترافَق ذلك مع صعود نجم الحزب ودخوله الندوة البرلمانية عام

(٥) الكلية العاملية هي مؤسسة تعليمية أسّستها الجمعية الخيرية الإسلامية العاملية عام ١٩٢٨ في منطقة رأس النبع، بيروت، بهدف تعليم أبناء جبل عامل النازحين إلى العاصمة وتحسين مستواهم الاجتماعي والعلمي. بدأت الكلية كمبادرة صغيرة وتوسّعت تدريجيًا، حيث تخرّج أول فوج عام ١٩٣٥. امتد نشاطها ليشمل ٤٧ مدرسة في الجنوب والبقاع وجبل لبنان، واهتمّت بتوفير التعليم الابتدائي والمهني. اعتمدت الكلية على دعم المغتربين وتمكّنت من مواجهة التحديات المالية عبر حملات جمع التبرعات، مؤكدة دورها الريادي في النهوض بالتعليم الشيعي. (يراجع في هذا الخصوص كتاب: شِيعَة لبنان والتَّعليم، في نَشأةِ نِظامٍ تَربَويٍّ رَديف ومَآلاتِه، اصدار «أمم»).

١٩٩٢. ففي السنة التي تلَت، أي عام ١٩٩٣، طفَت على سطح المشهد التربوي الشيعي شبكة مدارس ذات التزام عقائدي تحت اسم «مدارس المهدي»، وأخرى تابعة لجمعية التعليم الديني الإسلامي[٦] تُعرف بمدارس «المصطفى».

فمؤسّسات الحزب التربوية، وتحديدًا المدارس، تُسهم في خلْق وتعميم الخصوصية الثقافية والمذهبية في أذهان الطلاب، ليس فقط بما تتضمّنه هذه المناهج أو في طُرق تدريسها، ولكن أيضًا في طبيعة الأنشطة الثقافية التي يجري العمل على تمرُّس التلامذة عليها. على سبيل المثال، تعتمد «مدارس المهدي» في مناهجها التربوية كتاب «نحن والتاريخ»، الذي يُعرّف عنه بكَونه «يؤرّخ لاضطرابات المنطقة منذ أكثر من ١٤٠٠ عام وينمّي معرفة الأطفال في التاريخ الإسلامي، فضلًا عن التركيز على جرائم الصهاينة في فلسطين».

حفلات التفوق في مدارس المهدي

وعلى سبيل المثال أيضًا، يتناول كتاب تاريخ الصف الثامن الأساسي درسًا حول «معركة يارون واستشهاد الشيخ ناصيف النصّار»[٧] ويَذكُر أنها «أرض المعركة في بلدة يارون المواجهة للحدود مع فلسطين المحتلة»، مع ما يحوي ذلك من تأكيد على أن شخصية ناصيف النصّار التاريخية والأرض التي قُتل عليها تحمل معاني «الاستشهاد»، كونه زعيمًا شيعيًّا، وعلى أرضٍ مواجِهة لـ«فلسطين المحتلة»، في ترسيخٍ لواقع أن هذه الشخصية قامت بفعل «الشهادة» فوق أرض الجنوب، وهي نفس التضحية التي يقوم بها مقاتلو حزب الله اليوم.

بالإضافة إلى ذلك يتضمّن كتاب تاريخ الصف الثالث الأساسي دروسًا هدفها التعريف بشخصيات الأئمة دون إيلاء أي اهتمام لتاريخ لبنان.

هذا الأمر يهدف إلى إعلاء فكرة الانتماء إلى تاريخ الحزب أو الطائفة على الانتماء الوطني العام، وشيئًا فشيئًا يساهم في خَلق جيل متشرّب بالعقيدة، بدءًا من التاريخ الذي يريد الحزب تسليط الضوء عليه.

بالإضافة إلى كتاب «نحن والتاريخ»، درجَت «مدارس المهدي» على تعليم اللغة الفارسية ضمن مناهجها، فضلًا عن إقامة مخيّمات وأنشطة لا تغيب عنها شعارات «حزب الله» والجمهورية الإسلامية الإيرانية وصوَر المُرشد (الولي الفقيه) والأمين العام السابق للحزب الراحل السيد حسن نصرالله، حتى في مستوى الروضات.

كتاب نحن والتاريخ إلى جانب كتب تاريخ أخرى

رؤية المؤسّسة الإسلامية للتربية والتعليم - مدارس المهدي

وفق ما نشره موقع khamenei.ir، تأسّست «مدارس المهدي» عام ١٩٩٣، ويبلغ عدد فروعها اليوم ٢٢ فرعًا، تتوزّع في كل من بيروت والجنوب والبقاع والشمال حتى

(٦) جمعية التعليم الديني الإسلامي هي مؤسسة تربوية تأسست عام ١٩٨١ بموجب علم وخبر رقم ٦٨/أد، وتركز نشاطها على نشر التعليم الديني الإسلامي في المدارس الرسمية والخاصة، وتعليم القرآن الكريم، وإنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية ومعاهد فنية. قامت الجمعية بتأسيس سلسلة مدارس "المصطفى" في عدة مناطق لبنانية، مثل حارة حريك وبئر حسن وصور والنبطية والبقاع، ووصل عدد طلابها إلى ٤١١٢ في العام الدراسي ٢٠٢١-٢٠٢٢. (يراجع في هذا الخصوص كتاب: شِيعَة لبنان والتَّعليم، في نَشأةِ نِظامٍ تَربَويٍّ رَديف ومَآلاتِه، اصدار «أمم»).

(٧) ناصيف النصّار (١٧١٣-١٧٨١) كان شيخ مشايخ جبل عامل في عصره، وسعى لإقامة تحالفات قوية لمواجهة العثمانيين، أبرزها تحالفه مع ظاهر العمر حاكم فلسطين. اشترك في فترة ما مع أحمد باشا الجزار ضد باشا الشام عام ١٧٨٠. قُتل في معركة يارون خلال مواجهته للعثمانيين. (يراجع في هذا الخصوص كتاب: تاريخ شيعة لبنان من الماضي الغامض الى المستقبل المجهول، اصدار «أمم»).

مدينة قُم المقدّسة. وتُعتبر «مدارس المهدي» مؤسّسات مدعومة، لخدمة مجتمع المقاومة، حيث تستوعب عددًا كبيرًا من الطلاب، وتتميّز بانخفاض كلفة الأقساط مقارنة بالمدارس الأخرى في البيئة المحيطة، خاصة في مناطق الجنوب والبقاع والشمال. تُولي المؤسّسة عناية خاصة بمرحلة التكليف الشرعي للفتيان والفتيات، من خلال إقامة برامج دينية وإرشادية وثقافية، بالإضافة إلى تنظيم احتفالات تكريمية سنوية لهم. كما تعتني المؤسّسة ببرامج تعليم القرآن الكريم، بما في ذلك التلاوة والترتيل والتجويد والتفسير والحفظ. وقد أعدّت المؤسّسة منهاجًا خاصًّا يتضمن ١٢ كتابًا وموادّ تطبيقية ورقمية، فضلًا عن تحضير ٤٠ معلّمًا ومعلّمة لتدريس القرآن الكريم.

في ما يخصّ المساعدات الاجتماعية، تُقدّم المؤسّسة حزمةً من التقديمات والحسومات والمِنح، بالإضافة إلى تقديم مساعدات اجتماعية لكادرها التعليمي ولعدد كبير من أولياء الأمور المستضعَفين والمحرومين. وقد زادت نسبة هذه التقديمات بما يفوق ١٠٠٪ نظرًا لتردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد.

تُلزم «مدارس المهدي» الفتيات والمدرّسات بارتداء الحجاب، وقد بدأت هذه الحالة بالتمدُّد شيئًا فشيئًا داخل البيئة الشيعية، بهدف إنشاء مؤسّسات تُساهم في بناء بيئة شيعية تتبَع نهج سيَر الأئمة، وتربية جيل مسلم متشيّع يصبّ في نهاية المطاف في رفْد الحزب الأقوى داخل الطائفة (حزب الله) بأعضاء مزوّدين بالتنشئة الشيعية منذ نعومة أظافرهم.

في إطار انتشارها داخل البيئة الشيعية، ضمّت «مدارس المهدي» في العام ٢٠١٩ - ٢٠٢٠ حوالى ٤٤٪ من نسبة الطلاب الشيعة في المدارس المجانية التابعة للطائفة، مما يدلُّ على قوة الحزب ومؤسّساته التعليمية داخل الطائفة.

الأنشطة المعتمَدة في «مدارس المهدي» صاغَتها الهيئة التعليمية في «حزب الله»، والتي تُدار من خلال «المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق» و«مركز الخميني الثقافي».

يمكن تلخيص أبرز الأنشطة التي يتمّ تطبيقها بالفعل في هذه المدارس كما يلي:

الأناشيد الثورية: يتمّ التركيز على الأناشيد الحماسية المؤيّدة لحزب الله، مع شبه تغييب للنشيد الوطني اللبناني. هذه الأناشيد تهدُف إلى تعزيز دور الولاء للحزب وغرْس القيَم والمبادئ التي يتبنّاها في نفوس الطلاب في سنٍّ مبكرة.

التدريب العسكري: تُقام للتلاميذ رحلات إلى ميادين التدريب ومعسكرات حزب الله المنتشرة في البقاع، وجبل عامل، والمناطق الجنوبية بشكل عام. عندما يصل الفتيان إلى سنٍّ يسمح لهم بحمل السلاح، حتى قبل بلوغهم سنّ

طالبات مدارس المهدي يحمل صور الامين العام السابق للحزب والمرشد الأعلى

الـ١٨ عامًا، يتمّ إرسالهم خلال فصل الصيف إلى مخيّمات تدريبية تتضمّن تدريبات جسدية شاقّة وتعلّم الرماية باستخدام أسلحة حربية تحت شعار«محو الأمية العسكرية» أو إعداد «أشبال المقاتلين».

نشاط صفي في مدارس المهدي

تُمارس «مدارس المهدي» سياسة «تفْريس مُقنَّعة»، حيث تحاول تطبيق النموذج الإيراني في التعليم. يظهر هذا بوضوح من خلال اعتماد كتاب بعنوان «المباني النظرية للتحوّل البنيوي في نظام التربية والتعليم الرسمي والعام في جمهورية إيران الإسلامية» الذي تمّ إقراره من قِبَل المجلس الأعلى للتربية والتعليم في مدينة مشهد الإيرانية عام ٢٠١٠. يُعتبر هذا الكتاب «نقطة تحوُّل في مقاربة قضية التأصيل التربوي» في مدارس «المهدي»، وفقًا لما ذكره المدير العام للمؤسّسة الإسلامية للتربية والتعليم الدكتور حسين يوسف.

«وإذا أخذنا بعَيْنِ الاعتبار أنَّ أحدَ الأصولِ النَّظريَّةِ التي بُنيتْ عليها الرُّؤية الموجودة في الكتاب هو «خطاب الثورة

الإسلامية» الذي يقوم على أفكار الخميني والخامنائي «وكبار رجال الثورة الإسلامية»، فيُمكن الخلوص إلى أن اعتمادَه أساسًا للرؤية التربوية لـ«مدارس المهدي» هو الامتداد الثقافي والتربوي، إن جاز التعبير، لشعار «تصدير الثَّورة» الذي رفعَه الخميني عام ١٩٧٩. فإيران، عبر حزب الله، تستخدمُ الدِّين والثقافة والتعليم كوسائل للسيطرةِ والتحكُّم بالأجيالِ التي تُخرِّجها هذه المدارس. وفي ضوءِ هذا يُمكننا أنْ نفسِّر الحضور الإيراني الرسمي في الاحتفالات والنشاطات التي تُقيمها هذه المدارس، والحضور السِّياسي على وجه الخصوص في نشاطاتٍ ثقافيّة يُفترض أن يحضرَها الملحق الثقافي الإيراني والمستشار السياسي للسفير الإيراني. وأيضًا يُمكُنا أن نُعيدَ النظر في فَهمِ الهدف وراءَ تعليم اللغة الفارسيّةِ، كلُغةٍ أجنبيّة ثانية، في مناهجِ «مدارسِ المهدي». وفْق ما جاء في كتاب التربية، الصادر عن «أمم» بعنوان «شيعة لبنان والتعليم».

وتأكيداً على ما ورد أعلاه نُشر في «موقع العهد الإلكتروني»، مقابلة مع مدير «المؤسّسة الإسلامية للتربية والتعليم» بتاريخ ٢١ حزيران ٢٠٢٢ أورد فيها: «لا يمكن أن تكون المناهج التي تتعامل مع الناشئة مناهج حياديّة بل لا بدَّ أن تكون تركِّز على قضايا العدالة ورفض الظُّلم والإباء والاستقلالية وتعظيم الوطنية والتضحية وتعظيم الشهادة والشهداء والقدرة على فَهم المجتمع والانتماء له وإلّا فنحن نربّي مجتمعًا ليكون كما يُراد من خلال عولمة التربية والتدخّلات الكبرى التي تحصل تحت عناوين مقرّرة التأثير على المجتمع وأن يكون ظاهر الناس امتلاكهم لمهارات منسجمة مع مهارات العيْش، ولكن ليس لديهم مناعة ضد التحديات الخارجية، وبالتالي نحن بذلك نكون أمام مجتمع يتماهى مع العولمة دون أن نجهِّز مواطنين لبنانيين لديهم وظيفتهم وقُدرتهم وسُننهم الوطنية الإيجابية وليس السلبية». مع ما يعنيه ذلك من التزامٍ تام بأدبيّات «حزب الله» المعطوفة على كونها عنصرًا أساسيًّا من عناصر إحقاق الحق ورفض الظُّلم وتعظيم الإنتماء والشهادة.

مدارس المصطفى

أمّا مدارس المصطفى التابعة للأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم[٨]، فهي تختصّ بأطفال الكوادر رفيعة المستوى لحزب الله أو عائلات الشيعة الأثرياء في لبنان.

تتقاطع مدارس «المصطفى» في أهدافها مع مدارس «المهدي». فوِفْق مقال نُشر في «موقع المشرق»، تنشر المؤسّسات التربوية هذه «الثقافة والعادات والتقاليد والطقوس التي يمارسها نظام الحرس الثوري في إيران ويفرضها على المجتمع»، مثل فرض الحجاب على كل فتاة تبلغ التاسعة من عمرها، وإقامة حفلات تكليف بمباركة من مشايخ حزب الله وفي طليعتهم نعيم قاسم، وكذلك إقامة مجالس عاشورائية طيلة أيام عاشوراء يتخلّلها خُطب سياسية تمجِّد أفعال مُقاتليه.

أما بالنسبة إلى رسالة مدارس «المصطفى» وأهدافها المنشورة على الموقع الرسمي لـ«جمعية التعليم الديني الإسلامي»، فتذكر أن هذه المدارس «تربيةً وتعليمًا يساعدان على الارتقاء بالمتعلّم لبناء شخصية متوازنة وفْق قيَم الإسلام المحمَّدي الأصيل والحقائق العلمية والتعليم المستمر، ليصبح رساليًّا، أكاديميًّا، منفتحًا، مُبدِعًا، متميّزًا، وفاعلًا في بناء وطنه والدفاع عنه وخدمة مجتمعه لتحقيق الحياة الطيبة. وفيما تشدّد مدارس «المصطفى» على «تربية المتعلِّمين على نهج الجهاد والمقاومة والمواطنة»، فهي تقيم أنشطة لاصفِّية ذات توجّه إسلامي، مثل أداء صلاة الجماعة داخل المدرسة للمكلَّفين واحتفالات التّكليف الشّرعي للمتعلِّمات.

واستنادًا إلى مقال نُشر في «موقع لبنان الكبير» تحت عنوان «كيف تُدار مدارس حزب الله في لبنان؟»، ورد فيه ما يلي: تتمّ في هذه المدارس التعبئة العقائدية والولائية للخميني ونصرالله جنبًا إلى جنب مع فنون المسارح القتالية للأطفال، مستخدِمين البنادق والألبسة العسكرية. فهذه المدارس، التي تستوعب آلاف الطلاب الذين تتراوح أعمارهم بين ٥ و١٨ عامًا، يُشرف عليها كادران: ديني ومعرفي. الكادر الدِّيني يتكوّن من خرّيجي ومُنتسبي «جمعية التعليم الديني التي ترأسها نائب نصرالله الشيخ نعيم قاسم لسنوات طويلة، بينما الكادر المعرفي يتكوّن من خرّيجين تابعين للحزب أو مَن يدور في فلكهم.

منهج التعليم الديني في مدارس المصطفى

أما في ما يتعلق بالمناهج، فتعتمد المدارس على كتاب «الإسلام رسالتُنا» الذي يهدف إلى تعميم التعليم الديني في المدارس. وتتنوّع الأهداف وفقًا للحلَقات الدراسية على النحو التالي:

(٨) نعيم قاسم، من مؤسسي حزب الله، أصبح أميناً عاماً للجماعة بعد اغتيال حسن نصر الله في غارة إسرائيلية استهدفت مقر قيادة الحزب في الضاحية الجنوبية لبيروت في ٢٧ أيلول ٢٠٢٣. أعلن حزب الله في بيان رسمي في ٢٩ تشرين الأول تعيين قاسم أميناً عاماً جديداً. شغل قاسم عدة مناصب قيادية في الحزب، منها نائب الأمين العام منذ ١٩٩١، وأشرف على نشاط الحزب السياسي والانتخابي والتربوي في لبنان.

فـي الحلقتيـن الأولـى والثانيـة: تنميـة العواطـف والمشـاعر الإسـلامية لـدى المتعلّـم، والتعويـد علـى الآداب الإسـلامية العامة، والتزويـد ببعـض التعريفـات والمعلومـات الإسـلامية الأساسـية.

فـي الحلقـة الثالثـة: حمـل المتعلّـم علـى الالتـزام بالدِّيـن الحنيـف فكـرًا وسـلوكًا.

فـي المرحلـة الثانويـة: التركيـز علـى بنـاء شـخصية دينيـة قويـة منفتحـة وداعيـة إلـى الإسـلام.

التداخـل بيـن «حـزب اللـه» ومـدارس المصطفـى، يمكـن الاسـتدلال عليـه بمـا لأميـن عـام حـزب اللـه مـن نفـوذ داخـل جمعيـة التعليـم الدينـي، وبعلاقـة الجمعيـة بقيـادة الحـزب مـن جهـة أُخـرى. فعلـى سـبيل المثـال لا الحصـر، وفـي خبـر منشـور علـى «موقـع جمعيـة التعليـم الدينـي» فـي ٢٩ تشـرين الأول ٢٠١٥، «زار وفـد مـن "جمعيـة التعليـم الدينـي الإسـلامي" ضـمّ المديـر العـام الشـيخ علـي سـنان وأعضـاء الهيئـة الإداريـة وبعـض المديريـن، رئيـس المجلـس التنفيـذي السـابق فـي حـزب اللـه الراحـل سـماحة السـيد هاشـم صفـي الديـن مقدِّمًـا لـه مجموعـة كتـب مـن إصـدارات الجمعيـة مـن ضمنهـا النسـخة الجديـدة مـن «سلسـلة الإسـلام رسـالتنا» وجـرى الحديـث حـول تطـوّر التعليـم الدينـي والبرامـج المتّبعـة لرفـع مسـتوى المدرّسـين بالأسـاليب الحديثـة فـي التعليـم لتتماشـى مـع تطـورات العصـر. وقـد أثنـى سـماحة السـيد علـى دور الجمعيـة الرائـد فـي مجـال التعليـم والتربيـة مؤكّـدًا علـى ضـرورة التنسـيق مـع باقـي المؤسّسـات لتحقيـق أكبـر قـدَر مـن التعـاون فـي مجـال تطويـر البرامـج والمناهـج والكتـب ممـا يُعطـي القـوة لمجتمعنـا وأبنائنـا ومؤسّسـاتنا».

من حفلات التكليف في مدارس المصطفى

المثـال الـوارد أعـلاه، معطوفًـا علـى تكريـس مفاهيـم الجهـاد فـي التعليـم الدِّينـي للجمعيـة، يـدلّان علـى مـدى التداخـل بيـن العملَيـن الحزبـي والدِّينـي، إذ نشـرت جمعيـة التعليـم الدينـي علـى موقعهـا الإلكترونـي قـولًا للإمـام علـي: «الجهـاد عمـاد الدِّيـن ومنهـاج السـعداء».

أمين عام حزب الله في حفل تكريم العاملين في جمعية التعليم الديني الاسلامي، المصدر موقع الجمعية الإلكتروني

دار أجيال المصطفى

تأسّسـت دار «أجيـال المصطفـى (ص)» سـنة ١٩٩٣، بهـدف تجسـيد رؤيـة جمعيـة التعليـم الدينـي الإسـلامي، والمسـاهمة فـي تعزيـز موقعهـا فـي السـاحتَين العلميـة والتربويـة. انطلقـت الـدار مـن حاجـة الجمعيـة لامتـلاك مؤسّسـة تنشـر مـن خلالهـا ثقافتهـا الملتزمـة عبـر كتـب ومؤلّفـات ودوريـات تواكـب حركتهـا فـي إرسـاء قيَـم الإسـلام فـي مجالـي التربيـة والتعليـم.

وتسـتمدّ الـدار رؤيتهـا مـن رسـالة الجمعيـة التـي تسـعى لتجسـيد الرسـالة الإسـلامية بـكل جوانبهـا التشـريعية والفقهيـة والتربويـة والعلميـة، لخدمـة أجيالنـا الصاعـدة.

السـرد الـوارد أعـلاه حـول مـدارس ودار «أجيـال المصطفـى» يُشـير أيضًـا إلـى الـدور الـذي تلعبـه هـذه المؤسّسـات فـي توجيـه جيـل الطلبـة سياسـيًّا، تمهيـدًا ليصبحـوا لاحقًـا مـن المبايعيـن للحـزب أو المنخرطيـن فـي صفوفـه.

وفـي هـذا الإطـار، نعـود إلـى مقالـة نُشـرت فـي «موقع رصيـف ٢٢» تحـت عنـوان: «مـدارس الإسـلام السياسـي فـي لبنـان... كيـف تُرسـم توجّهـات الأجيـال الجديـدة؟»، التـي تسـلّط الضـوء علـى الجمعيـة والـدور الـذي أُنيـط بهـا منـذ التأسـيس حتـى اليـوم.

«فـي أواخـر السـبعينات، أنشـأت مجموعـة مـن المتديِّنيـن «جمعيـة التعليـم الدينـي الإسـلامي»، وكان مـن أهدافهـا نشـر التعليـم الدِّيني فـي المـدارس الرسـمية والخاصـة، وتدريـب أسـاتذة التعليـم الدِّيني. ثـم بـدأت الجمعيـة بإنشـاء مـدارس خاصـة تحـت اسـم مـدارس «المصطفـى»، وكان أوّلهـا «ثانويـة المصطفـى» فـي حـارة حريـك سـنة ١٩٨٤، ثـم تبعتهـا فـروع أخـرى فـي بئـر حسـن (خاصـة بالإنـاث)، والنبطيـة، وصـور، وغيرهـا.

أصـدرت الجمعيـة كتـاب «الإسـلام رسـالتُنا»، وهـو كتـاب خـاص بتعليـم مـادة التربيـة الإسـلامية لجميـع المراحـل. وقـد أصبـح هـذا الكتـاب الأكثـر اعتمـادًا فـي أغلـب المـدارس الدِّينيـة التابعـة للطائفـة الشـيعية، وأيضًـا فـي المـدارس غيـر الدِّينيـة والرسـمية التي

تقع في المناطق ذات الأغلبية الشيعية. باتَ الكتاب أقرب إلى كونه مرجعًا موحّدًا للتعليم الدِّيني عند الشيعة في لبنان، وهو ما لم يحدث في وسط أي من الطوائف الأخرى. وفي هذا المجال يظهر أن الأثر الذي تتركه هذه الجمعية لا ينحصر في مدارس المصطفى إنما يتعدّاه إلى المدارس التي يتوجّه إليها أغلب الشيعة في لبنان.

كان من ضمن المجموعة التي أسّست «جمعية التعليم الديني الإسلامي» الشيخ نعيم قاسم، أمين عام حزب الله حاليًّا، وكان ذلك قبل تأسيس حزب الله رسميًّا. طبيعة العلاقة بين نعيم قاسم والجمعية متينة، «حيث يرعى أغلب الاحتفالات التي تقيمها، مثل حفلات تكليف المحجبات والإفطارات».

وفي المقالة ذاتها يظهر فيها صوَرٌ لأفرادٍ من الطاقم التعليمي في المدرسة الذين قضوا في سوريا خلال السنوات الماضية. يضيف كاتب المقالة: «إن أحد المظاهر البارزة في المدرسة هو انتشار أعلام حزب الله وصوَر مُرشدَي الثورة الإيرانية، السابق والحالي الخميني والخامنئي، كما أن أولاد شهداء حزب الله يتعلّمون في المدرسة مجانًا، وهو ما تؤكّده النشاطات التي تُقيمها المدرسة لهم من تكريم وغيره والتي تُنشر على الموقع الإلكتروني الخاص بمدارس المصطفى».

تتناول المقالة أيضًا شهادة أخرى عن الدَّور التعبوي لمدارس «المصطفى»، وكيف «أن الطلاب ينخرطون في الفرز السياسي الداخلي وفْق تموضع الحزب. يؤكّد أحد متخرّجي هذه المدارس أنه في عام ٢٠٠٧ دعَت إدارة المدرسة الطلاب للمشاركة في التظاهرات التي نظمتها قوى ٨ آذار ضد حكومة فؤاد السنيورة، وقامت بنقل الطلاب عبر الحافلات الخاصة بها إلى ساحة رياض الصلح التي جرَت فيها هذه التظاهرات».

أطفال ينتخبون بمدارس حزب الله:

فوز كاسح للشهداء والقادة

في مقالة نُشرت أيضًا في موقع «المدن» تحت العنوان الوارد أعلاه، جاء فيها: «أقامت إحدى مدارس حزب الله نشاطًا في صفٍّ من صفوفها: تدريب انتخابي لأطفال الحلَقات الثانية الذين لم تتجاوز أعمارهم عشر سنوات، وذلك لتدريبهم على عملية الاقتراع التي جرت يوم الأحد الماضي. وقد أقامت فرق الكشافة، بدورٍ هام، أقاموا يومًا للنشاط الانتخابي، شارك فيه البراعم داخل المساجد، لتوحيد صوتهم الداعم لحزب الله، مسجّلين موقفًا علنيًّا واضحًا: على العهد باقون».

وتضيف المقالة: «اللافت في عملية مُحاكاة الاقتراع هذه، هو عدم وجود عازل ولا حاجة له، ولا ضرورة لأيِّ سرِّية انتخابية. وذلك ليتعلّم الأطفال أن صوتهم يجب أن يكون موحّدًا، وعليهم جميعًا أن يكونوا على خطٍ واحد وينتخبوا حزب الله لحفظ دمّ الشهداء».

وفي سياق الدّور التعبوي لدار «المصطفى» ومدارسها، نقلَت صحيفة الـ«أكسبرس» الفرنسية عن طالب قوله: «أهم شيء في مدارس المصطفى هو كل ما تدرسه بالإضافة إلى المنهج الأصلي، خاصة مفاهيم المقاومة ضد إسرائيل. كما لو أننا نتدرّب تمامًا في مدرسة عسكرية نظامية».

وعليه، فإن كلتا مدارس «المهدي» و«المصطفى»، معنيّتان بتلقُّف الأطفال وهم في بداية تكوّن وعيهم الاجتماعي والثقافي والدِّيني، وهما تعملان على تنشئتهم بشكل منهجي وضمن دائرة عقائدية معينة تُحيلهم إلى أشخاص مختلفين عن أقرانهم. ومن هنا يدخلون في منظومة الفكر الأوحد والحقيقة الكونية الواحدة والثقافة الاجتماعية الواحدة، والولي الفقيه الواحد والأوحد الواجب إطاعته مرضاةً للخالق.

أطفال «حزب الله»، عسكر. المصدر جنوبية

التعبئة التربوية

ولإحكام قبضته على المدارس، وإخضاع المنظومة التعليمية قاطبة للعمل على تحقيق أهدافه، أنشأ الحزب «التعبئة التربوية»، التي تُعدُّ بمثابة الذراع الطلابية له، حيث تنتشر فروعها في مختلف الثانويات، الرسمية منها والخاصة.

وتعكس أنشطة «التعبئة التربوية» مواقف الحزب، وهي تعرّف عن أهدافها بوضوح: «دعم المقاومة وتعميم ثقافتها وتجذيرها ورفْدها بالكفاءات المتخصصة، والتزام القضايا الكبرى للوطن والأمة». ووفقًا لما ورد على موقعها الرسمي، تُعرّف «التعبئة التربوية في حزب الله» نفسها بأنها: «حركة كادحة لتوأمة العلم والجهاد، والتربية والإيمان خدمةً للمقاومة والوطن وتمهيدًا للدولة العادلة».

لكن دور «التعبئة التربوية» لا يقتصر على التماهي مع شعارات الثورة الإيرانية، كما ورد في باب «الحاج قاسم في عيون الشباب» الذي يُبثُّ على الموقع الرسمي للتعبئة في الذكرى

السنوية لاغتيال قاسم سليماني[٩] وأبو مهدي المهندس، والذي يشمل مشاركات شبابية عربية وإسلامية تعبِّر عن آرائها في هذه المناسبة. بل يتعدّاه إلى بناء الفتيان والشباب على «القيَم الإسلامية» المتّبعة للولي الفقيه في إيران.

فتحْتَ عنوان «ليتفقّهوا»، تتمّ الإجابة على أسئلة سلوكية من منظار الولي الفقيه، مثل:

«س - هل يجوز جلوس التلميذ البالغ إلى جانب زميلة له في صفّه على مقعد واحد؟

ج - لا يجوز ذلك إذا كان يؤدّي إلى اللمس أو النظَر المحرّمين، أو كان مثيرًا للشهوة أو ترتّبت عليه مفسدة أخرى.

س - هل يجوز للطالبة الركض في حصّة الرياضة إذا كان المعلِّم لها رجلًا وإذا لم تفعل يؤدّي ذلك إلى عدم إعطائها العلامة اللازمة؟

ج - مجرّد الركض المذكور لا مانع منه في نفسه إذا لم يكن مثيرًا للشهوة، أو يترتّب عليه خوف الوقوع في الحرام».

من هنا، يبدو جليًّا أن «حزب الله»، بوصفه تنظيمًا حديديًّا يرتكز على عمل مؤسّساتي، يسعى إلى تنشئة بيئته وقولبتها بشكل يكرّس الانتماء للجماعة الدِّينية.

وسائل الترفيه

عملية «نحت» أفكار الأطفال وفْق العقيدة الحزبية المسيطِرة يتناول أيضًا ما يندرج تحت إطار وسائل الترفيه، بحيث تتمّ قولبتها بشكل يتماشى مع ما يريد «الحزب» أن يزرعه في عقول الأطفال. على سبيل المثال، يمكننا التوقّف عند العدد ٩١ من مجلة «المهدي»، حيث تظهر قصة قصيرة تحت عنوان «الغنيمة/ مهمتهم أن يسحبوا جثة نادر الذي استُشهد منذ يومين». تدور أحداث هذه القصة، الموجهة للأطفال البالغين من العمر الـ٥ سنوات وما فوق، حول ثلاثة مقاوِمين مهمّتهم استعادة جثمان زميل لهم. وبعد اشتباك مع العدو، يُصاب أحدهم ويظنّون أنهم فشلوا في استعادة الجثمان، لكن زميلهم يفاجئهم بأنه اغتنم جثة أحد جنود العدو، قائلًا: «نعم لم نفشل، إنها جثة واحد منهم، أو نصف جثة لا أدري... حملتها... لم نفشل... سنُعيد جثة نادر وغيرها... وغيرها... لم نفشل».

التربية على مفاهيم المقاومة العسكرية من خلال قصص المجلة، التي تصل إلى حدود البطولة وكيف أن ثلاثة مقاتلين دمّروا دبابات أثناء غنيمتهم مكبّرين «الله أكبر»، تعزّز النظرة العسكرية لدى الطفل وتجعله مستقبلًا متماهيًا فكريًّا مع ما تشرَّب عقله منذ الطفولة، وتحديدًا هنا ثقافة عسكرة المجتمع. بالإضافة إلى ذلك، هناك وصف دقيق للعمليات العسكرية وما يرافقها من قتل، وصولًا إلى الخيال الذي يرافق صورة «نصف الجثة» في عقول أطفال لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم!

أكثر من ذلك، لم تتوقّف حدود بناء مخيَّلة الأطفال عند هذا الحدّ، إذ ورد في مقالة نُشرت في «موقع العربي الجديد» تحت عنوان: «صوَر قطع رؤوس في قصص عربية للأطفال»، أنه انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي صوَر مأخوذة من قصة عن «المختار الثقَفي» صادرة عن دار «المحجة البيضاء».

هذه القصة التاريخية المعروفة التي تتحدّث عن سيرة الثقَفي، وكيف قام بقطع رأسَي شخصين. المفاجئ في الموضوع كان تصوير الحادثة برسومات تُظهر الثقَفي وهو يحمل الرأسَين بعد أن فُصلا عن الجثّتين... في ما يفترض أنها رسومات تفسيرية للأطفال.

وفي صورة أخرى يظهر شخص مقطوع اليدين والرجلين بأمرٍ من الثقَفي انتقامًا، وبعدها يتمّ رمي هذا الشخص في النار. هذه القصة التي تتوجّه للأطفال لا تترك مجالًا لمخيّلتهم، ففي كل صفحة ولكل مقطع مكتوب صورة تُفسِّر وتُوضح المشهد، لتُصبح القصة عبارة عن قطع رؤوس وأيادٍ ورميٌ في النار المشتعلة.

وفي عدد ٢٦ يوليو ٢٠٢٤ من مجلة «المهدي» لعمر ٥ سنوات وما فوق، تحت عنوان «رحلة إلى أرض الأبطال»، تُطرح الأسئلة التالية: «هل سبق وزُرتم جنوب لبنان، وتحديدًا المدن والقرى المتاخمة للحدود مع فلسطين المحتلة؟».

تبدأ أبواب هذا العدد بعناوينَ عامة مثل «ماذا تعرفون عن قرى الجنوب؟» و«عن الأطعمة التي تشتهر بها؟» و«عن مزروعاتها؟»، لتنتقل إلى الجانب التعبوي من خلال مَحاور مثل «كيف وقفَ أبناؤها مع المقاومين لطرد الاحتلال الإسرائيلي منها؟» و«كيف صمَد أهلها في أرضهم أثناء الاحتلال؟» و«ماذا عن القرى التي لا يزال العدو يحتلها؟».

المثل ليس إلّا دلالة بسيطة عن أن «أدْلَجة عناصر الحزب» وتنشئتهم العقائدية، أكانت دينية أم عسكرية، تبدأ منذ أن يُصبح الإنسان متلقّيًا في عمر الطفولة والمراهقة وتستمر هذه العملية إلى أن يلتحق في «التعبئة التربوية» أو في الجسم الجهادي للحزب.

في عدد آخر مخصَّص للمراهقين، تنشر المجلة نفسها، تحت عنوان «أحلى تحيّة» قصة تُقارِب معارك المقاومين في الجنوب

(٩) قاسم سليماني، قائد «فيلق القدس» التابع للحرس الثوري الإيراني منذ عام ١٩٩٨، لعب دورًا بارزًا في تشكيل السياسات الإقليمية الإيرانية وتعزيز نفوذها في الشرق الأوسط من خلال دعم الحركات والجماعات المسلحة الموالية لإيران في العراق وسوريا ولبنان واليمن. استمر في قيادة الفيلق حتى مقتله في ٣ كانون الثاني ٢٠٢٠، إثر عملية عسكرية أميركية استهدفته قرب مطار بغداد.

مع معركة الإمام علي ضد يهود خيبر، مما يعزِّز لديهم البُعد العقائدي والدِّيني للصراع. يرِد في القصة: «هنا في جنوب لبنان، اقتدى المجاهدون بأمرِه، فخرجت قلّة من المقاومين وسطّروا أجمل البطولات، فخاف العدو وهرب من لبنان ذليلًا... وانتصرت المقاومة وانتصر لبنان. سلام على المجاهدين المؤمنين وسلام على أميرهم في ذكرى مولده».

حول تأثير هذا المناخ على التكوين النفسي للطفل، يقول د. داوود فرج في مقال بعنوان «أطفال حزب الله»، المنشور سابقًا في نشرة «فان رقم ٤» الصادرة عن «أمم للأبحاث والتوثيق»: «إن هذه النشاطات تؤدّي إلى ما يُسمى في فلسفة التربية بـ'عملية تنميط الشخصية'». ويضيف د. فرج «إن النمو النفسي للطفل بين سن ٦ إلى ١١ سنة يقوم على آلية التماهي؛ تماهي الولد مع الأب والبنت مع الأم. عبر هذه النشاطات، يتمّ تقديم القائد كامتداد للأب، وما يرتبط بالأب بالنسبة للطفل يرتبط بالقائد أو البطل الذي يُصبح الأب البديل الذي يسلِّم له الطفل الولاء والطاعة». ووفقًا لفرج، فإن «هذه النشاطات تشدّ الطفل إلى اتجاه العسكرة عندما يكبر، وتاليًا، فإن الانتماء للحزب يُصبح حُلمًا للطفل يتوجّب عليه تحقيقه».

هذا المثال يُظهر بوضوح أن «أدلَجة عناصر الحزب» وتنشئتهم العقائدية، سواء أكانت دينية أم عسكرية، تبدأ منذ الطفولة والمراهقة وتستمر حتى يصبح الفرد جزءًا من «التعبئة التربوية» أو الجسم الجهادي للحزب.

وعليه، فإنه، استنادًا إلى الأمثلة الواردة أعلاه، يظهر أن مجلة «المهدي»، مُناط بها تكريس ثقافة حزب الله منذ مرحلة الطفولة لناحية تشرّب أفكار العسكرة والتماهي مع السلاح

مجلة المهدي

ونحت عقلية المقاتلين منذ الصغر.

تعبئة بمعيّة ألعاب الأطفال والمراهقين

تأخذ الألعاب والنشاطات الترفيهية مكانة كبرى في منظومة الإنتاج هذه، فعلى سبيل المثال، في ذكرى عودة الخميني من فرنسا تمَّ تنظيم فعاليات متعدّدة تشمل مجلة «المهدي» و«موقع العب مقاومة»، فضلًا عن تنظيم المباراة التاسعة للغة الفارسية تحت اسم «مباراة الشهيد قاسم سليماني». جميع هذه الأنشطة تساهم في بناء فتيان الحزب وتعزيز هويتهم السياسية والدينية.

ووفقًا لـ«موقع العب مقاومة» على شبكة الإنترنت، تعرّف «سلسلة ألعاب التحرير» على أنها سلسلة من الألعاب «تجسِّد طريق المقاومة الإسلامية منذ الطلَقات الأولى في خلدة عام ١٩٨٢، وحتى يوم التحرير الأغرّ في الخامس والعشرين من شهر أيار سنة ٢٠٠٠». تتضمن هذه السلسلة مجموعة من الألعاب التي تجسِّد العمليات النوعية التي خاضتها المقاومة منذ مواجهات خلدة على مشارف بيروت عام ١٩٨٢، مرورًا بحرب اقتحام وإسقاط المواقع الصهيونية واللحدية في جنوب لبنان في بداية شهر أيلول ١٩٨٦، إلى عدوان نيسان ١٩٩٦ ومعادلة صواريخ الكاتيوشا التي أثبتت أن الانتصار كان بفعل إرادة المقاومة، وصولًا إلى عصر العبوات الناسفة النوعية ضد قيادات وعناصر الجيش الصهيوني وعملائه اللحديين، خاصة قائد جيش الاحتلال في لبنان إيريز غيرشتاين عام ١٩٩٩ والعميل عقل هاشم، وصولًا إلى العمليات النوعية وإطلاق الصواريخ الموجّهة والدقيقة مثل عملية العزّية سنة ٢٠٠٠، حتى يوم التحرير المجيد. ولا ننسَ الاستشهاديين العِظام والمقاومين الأبطال والجرحى والأسرى الذين صنعوا النصر المُبين».

وإذا كانت سلسلة ألعاب التحرير تحاكي الصراع مع العدو الإسرائيلي، فإن ألعاب «الحزب» المتعلقة بمعارك جرود بعلبك تركِّز على التوجيه التعبوي للاعبين. على سبيل المثال، لعبة «الدفاع المقدس»[١٠] ليست مجرد لعبة، بل هي «محاكاة تهدف إلى توثيق مرحلة من مراحل الدفاع المقدَّس في وجه المدّ التكفيري ومواجهة المشروع الأميركي - الصهيوني»، وتؤرِّخ للتضحيات الجِسام التي تُبذل على هذا الطريق. وحسب «موقع العب مقاومة»، تُعتبر اللعبة «أداة مواجهة للثقافة المتوحّشة التي تغزو أسواقنا عبر الألعاب المجرّدة من الحسّ والانتماء»، وهي بمثابة تحية إلى أرواح وتضحيات الشهداء الجرْحى وعائلاتهم.

(١٠) من الجدير بالذكر أن عبارة «الدفاع المقدس »هي التسمية التي أطلقتها إيران على الحرب التي نشبت بين العراق وإيران من سبتمبر ١٩٨٠ حتى أغسطس ١٩٨٨. كانت هذه الحرب واحدة من أكثر الصراعات دموية في المنطقة، واستمرت لثماني سنوات شهدت مواجهات عسكرية طاحنة. انتهت الحرب حين قبل كل من العراق وإيران وقف إطلاق النار تحت مظلة قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٥٩٨. وعلى الرغم من ذلك، خلّفت الحرب خسائر هائلة في الأرواح والبنى التحتية وأثرت بشكل عميق على البلدين.

هـذا يشـكل دلالـة علـى أن حتـى فـي ألعـاب الأطفـال والمراهقيـن هنـاك توجيـه وتربيـة وفـق عقيـدة الحـزب، حيـث يُلقّـن الأطفـال دروسًـا متعلّقـة بالنهـج السياسـي والعقائـدي خـلال مراحـل اللعب.

لعبة... الدفاع المقدّس

تتكوّن «لعبة الدفاع المقدس» من المراحل التالية:

- **زيـارة المقـام الشـريف:** وهـي تجسـيد لباحـة المقـام المقـدّس، حيـث يمكـن التجـوُّل فـي أنحـاء الباحـة والتفاعـل مـع العالـم الافتراضـي ضمـن محيـط روحانـي.

- **مرحلـة الدفـاع عـن المقـام:** يظهـر فـي هـذه المرحلـة حجـم الخطـر الـذي يتعـرَّض لـه المقـام الشـريف، حيـث يتوجَّـب علـى اللاعـب حمايتـه ومنـع وصـول الجماعـات المسـلّحة التكفيريـة إليـه. إنهـا معركـة الدفـاع عـن المقدّسـات.

- **مرحلـة الحَجّيـرة (مهمـة ١):** هـي معركـة إزالـة خطـر مدافـع الهـاون عـن المقـام الشـريف، حيـث يقـوم «إرهابيّـو داعـش» بقصـف مقـام السـيدة زينـب(ع) بواسـطة مدافـع الهـاون، وذلـك انطلاقًـا مـن البسـاتين القريبـة مـن منطقـة حُجّيـرة.

- **مرحلـة الحَجّيـرة (مهمـة ٢):** فـي إطـار اسـتكمال العمليـة العسـكرية فـي منطقـة حُجّيـرة، يتابـع اللاعـب المعركـة، حيـث تكـون المهمـة تطهيـر مقـرّ قيـادة «داعـش» وتحقيـق السـيطرة الكاملـة علـى المنطقـة، وذلـك بهـدف إبعـاد المسـلّحين الإرهابيين عـن المحيـط الجغرافـي لمنطقـة المقـام الشّـريف.

- **مرحلـة القُصيـر (مهمـة ١):** مهمـة اللاعـب تحريـر الرهائـن المدنييـن المحتجَزيـن لـدى «القـوى التكفيريـة»، حيـث يجـب تأميـن هـؤلاء المدنييـن قبـل بـدء الهجـوم والسـيطرة الكاملـة علـى مدينـة القُصيـر.

- **مرحلـة القُصيـر (مهمـة ٢):** انطلاقًـا مـن ضـرورة «إبعـاد الخطـر الإرهابـي الداعشـي» عـن القـرى اللبنانيـة، لا بُـدّ مـن متابعـة الهجـوم والسـيطرة علـى كامـل المدينـة.

- **مرحلـة عمليّـة الهنـداوي:** فـي هـذه المرحلـة، تطلـب قيـادة المقاومـة مـن اللاعـب تنفيـذ عمليـة أمنيـة تهـدف إلـى القضـاء علـى المدعـو عبـد السـلام عبـد الـرزّاق الهنـداوي، الملقّـب بـ«أبـو عبـدو»، وهـو أحـد «أهـمّ المنسّـقين فـي داعـش»، ويعمـل «علـى نقـل الإرهابييـن الانتحارييـن إلـى المناطـق اللبنانيـة».

- **مرحلـة رأس بعلبـك:** هـي معركـة صـدّ هجـوم القـوى التكفيريـة علـى منطقـة رأس بعلبـك اللبنانيـة، إنهـا معركـة الدفـاع عـن الوطـن.

وفـي مقالـة نُشـرت فـي «موقـع بقيّـة اللـه»، وهـي مجلـة متخصّصـة بمسـائل العقيـدة وغيرهـا مـن المسـائل المحوريـة فـي إطـار بيئـة حـزب اللـه، حـول لعبـة الدفـاع المقـدّس، الموجّهـة إلى مَـن بلغـوا الخامسـة عشـر مـن العمـر ومـا فـوق، جـاء فيـه حرفيًـا أنـه: «لمـن فاتتـه فرصـة الالتحـاق بمجاهـدي الدفـاع المقـدّس في سـوريا ولبنـان، فلديـه فرصـة إلكترونيّـة فريـدة مـن نوعهـا. هـي تجربـة مميّـزة لوحـدة الإعـلام الإلكترونـي فـي حـزب اللـه بالتعاون مـع موقـع العهـد الإلكترونـي، نفّذتهـا مجموعـة صغيـرة مـن الشـبّان بقُـدُرات ومهـارات روحانيّـة عاليـة؛ لينتـج عـن مجهودهـم الكبيـر خـلال سـنتين مـن العمـل تقريبًـا، لعبـة إلكترونيّـة تضاهـي بجُودتهـا الألعـاب الأجنبيّـة المماثلـة».

لعبـة «الدفـاع المقـدّس»، تحت شـعار حمايـة الوطن والمقدّسـات، لعبـة «أكشـن» تُتيـح للّاعـب، والـكلام للمجلـة أيضًـا: «فرصـة خَـوض معـارك مـع المسـلّحين الإرهابيّيـن الذيـن دخلـوا إلـى سـوريا والحـدود اللبنانيّـة منـذ أعـوام قليلـة، حيـث تبـدأ المعركـة مـن محيـط مقـام السـيّدة زينـب عليهـا السـلام، ثـم تنتقـل إلـى منطقـة الحُجّيـرة، فالقُصيـر وصـولًا إلـى جـرود رأس بعلبـك حيـث يتـمّ إنهـاء المهمّـة بإزالـة خطـر الدواعـش عـن الحـدود اللبنانيّـة السـوريّة».

وتختـم المجلـة فـي وصـف اللعبـة بأنهـا «وسـيلة نقـل معرفـة لجيـل رقمـيٍّ آتٍ، لكنّهـا بـلا ريـب، إنجـازٌ جديـدٌ فـي تحويـل الألعـاب القتاليّـة إلـى قيمـة تربويّـة وعقائديّـة وأخلاقيّـة أيضًـا، بحيـث تُضـاف كإنجـاز متواضـع أمـام إنجـازات رجـال اللـه فـي الميـدان الحقيقـيّ».

أطفال يشاركون في لعبة الدفاع المقدس

إن هـذه اللعبـة الموجّهـة إلـى المراهقيـن تُظهـر حجـم العمـل علـى إدخـال المُراهـق فـي تفاصيـل معـارك حـزب اللـه، وتضعـه فـي مُحـاكاة حقيقيـة وعقائديـة، هـذا المراهـق وإن «فاتتـه فرصـة الالتحـاق بمجاهـدي الدفـاع المقـدّس» فإنـه سيَسـتبدل مـا فاتـه بمشـاركة رقميـة بمعركـة كانـت جـزءًا فـي صـراع أخـذَ طابعًـا مذهبيًّـا ومناطقيًّـا.

كشافة المهدي

ووفق ما نشره «موقع khaminei.ir» أيضًا فإن «جمعيّة كشّافة الإمام المهدي»، في سنويّتها السابعة والثلاثين، حافظت على موقعها كأكبر جمعيّة في لبنان من حيث العدد والانتشار الجغرافي والقادة والقائدات المتطوّعين، فقد تجاوز عديدها العام ٧٧ ألف كشفي، وفاقَ عدد القادة والقائدات ٧٠٠٠ متطوع ومتطوعة، وتجاوز عدد الأفواج ٦٨٠. تتنوّع برامج الجمعية ما بين تربوية ودينية وثقافية واجتماعية وترفيهية، وتنشر مجلة «مهدي» التربوية للأطفال، وشركة لإنتاج الأفلام للناشئة، و«الأكاديمية اللبنانية للمهارات والفنون» (٤٥ اختصاصًا) الموجّهة إلى العموم والشباب والمدن والمنشآت الكشفية.

وبناء عليه، لم تكتفِ جمعية «كشافة الإمام المهدي»، بتحصين مجتمع المقاومة في لبنان فحسب، بل عملت على نقل التجربة إلى العالم الإسلامي، خاصة أن العديد من شهداء شباب حزب الله قد تخرّجوا في كشافة الإمام المهدي.

لكن كشافة المهدي ليست مجرد جمعية كشفية تقليدية، فإلى جانب أنشطة الجوّالة والتخييم ومهارات الملاحة والقيادة وغيرها، تركّز الجمعية على التلقين الشرعي والتربوي بما يتوافق مع الخط الدِّيني الذي يتبنّاه حزب الله. ولا تُخفي الجمعية في أنشطتها الثقافية والمسرحية ذلك، بل يكاد يكون حضورها أساسيًّا في معظم المناسبات والمهرجانات التي يُحييها الحزب، كمراسم إحياء ذكرى عاشوراء ويوم الشهيد ويوم القدس وغيرها.

كما أنّ الكشافة، تلعب دورًا مركزيًّا في تثبيت منطلقات الحزب العقدية بين أبناء حاضنته الشعبية، مثل "الولي الفقيه" و"دولة صاحب الزمان" و"الجهاد المقدس" و"التكليف الشرعي".

واستنادًا إلى مقابلة نُشرت على «موقع الميادين» في آذار ٢٠٢٤، تعتمد «جمعية كشافة الإمام المهدي» على إرساء ثقافة المقاومة في برامجها التعليمية، إذ إنّ «العداء لإسرائيل يُعتبر جزءًا لا يتجزّأ من قيَم الكشفي، ويتحقّق هذا العداء من خلال امتلاك الفرد للمفاتيح المعرفية اللازمة التي تسمح له باتخاذ قراراته بشكل مستقلٍّ ومدروس»، حسب ما يقول مسؤول الإعلام الإلكتروني في الجمعية، محمد رعد لـ«موقع الميادين.نت».

في هذا السياق، تُكرّس كشافة الإمام المهدي جهودها نحو فَهم تاريخ الاستعمار في العالم وتحليله بشكل شامل، مركّزًا على تاريخ النكبة وجرائم الاحتلال الإسرائيلي بحقِّ فلسطين ولبنان.

ويضيف رعد: «الاستعمار ليس محصورًا بفلسطين، ولو أن «إسرائيل» حاليًّا هي وجهُه الأقبَح، لذلك نسعى في الكشاف لشرح مجمل أشكال التاريخ الاستعماري للشعوب، تحديدًا الفئات الناشئة».

ويضيف أنه «بالإضافة إلى الجانب الفكري، تعتني كشافة الإمام المهدي بالجانب الجسَدي من خلال الأنشطة الرياضية، وذلك من خلال تأهيل الشباب جسديًّا وفكريًّا ومعرفيًّا على مدى السنوات، بحيث يُصبح الكشفي إنسانًا فاعلًا وحركيًّا ونتاج مجموعة من الخبرات التي تضمن قُدرته على تحقيق هدف أساسي من أهداف الكشاف، وهو مقارعة الاحتلال».

مقاتلو الغد

ويشير مقال أُذيع على قناة «الجزيرة» بتاريخ ٣ كانون الثاني ٢٠٢٤ إن بعض الأُسر قد لا تتجاوب مع «أساليب التجنيد التقليدية لدى الحزب، فتستهدف «كشافة المهدي» الأُسر الباحثة عن محاضن تربوية - ترفيهية لأبنائها حيث تُنشّأ هذه الأجيال على المبادئ التي تربطها بمشروع حزب الله حين تبلغ سنّ الرشد. وهكذا، تشكل الجمعية محاضن تربوية ترفُد حزب الله بالعنصر البشري الشاب، المُعدّ عقائديًّا وثقافيًّا وبدنيًّا. وفي ظلِّ هذا التلقين المنهجي الثقافي والتدريب العسكري الأوّلي، يكون المنتسِب جاهزًا مبدئيًّا للالتحاق بصفوف مقاتلي حزب الله».

كشافة المهدي

مثالٌ حي على التأطير الحزبي

استنادًا إلى موقع مصوَّر للفرقة الموسيقية لـ«كشافة المهدي»، نُشر على «موقع العهد الإلكتروني» في ٢٧ آب ٢٠٢٤، تحت عنوان «بأمرك يا سيّد»، يبدأ المقطع بكلمة الأمين العام السابق لحزب الله الراحل السيد حسن نصرالله تقول: «سيأتي

اليـوم الـذي نحتاجكـم بفرقـة موسـيقية»، يؤكّـد قائـد الفرقـة أنّ فرقتـه جاهـزة تنظيميًّـا كإطـار مواكِـب للمقاومـة مختصـرًا كلامـه أنـه «فـي الأمـر العسـكري نقـول بأمـرك يـا سـيد». مـا يشـكّل دلالـة واضحـة علـى حجـم التداخـل بيـن الكشـافة والعمـل الفكري والعملـي للحـزب.

وفـي هـذا الإطـار شـدِّد مفـوّض الموسـيقى فـي الكشـافة علـى باجـوق علـى أن هـذه الفرقـة تمثّـل المقاومـة نهجًـا وروحًـا"، وأضـاف: «إن أنشـودة ارسـم طريـق القـدس عاصمـة السـيادة مؤشِّـر آخـر علـى أهميـة الموسـيقى فـي قضايـا المقاومـة، ليختـم قولـه إن الموسـيقى هـي التـي تعطـي الحماسـة للعسـكر، فهـي جاهـزة وبأمـر السـيد».

من نشاطات كشافة المهدي

إعداد المُقاتل

ومـن الكشـافة إلـى المرحلـة العسـكرية الأولـى، فاسـتنادًا إلـى مقـال منشـور علـى «موقـع مجموعـة الخدمـات البحثيـة»، تتكـوّن مرحلـة التدريـب الأوّليـة مـن عـدة تدريبـات فـي مسـار مهنـة المحـارب. فـي الوقـت الـذي يكـون فيـه المجنَّـد قـد أتـمَّ المراحـل الأوّليـة مـن التوجيـه الدِّينـي والتدريـب العسـكري بشـكل مـرضٍ لرؤسـائه، سـيكون قـد اكتسـب مسـتوى أكبـر مـن الثقـة وفـي إمكانـه الانضمـام إلـى وحـدات محـدّدة أو متابعـة تخصُّصـات عسـكرية متطـوّرة معيّنـة مثـل القنـص، الصواريـخ المضـادة للدبابـات، الاتصـالات أو المتفجـرات. فـي حيـن أن هنـاك مرونـة فـي السـماح للمجنّديـن باختيـار مجـال تخصّصهـم، فـإن قـادة «حـزب اللـه» سـيوجِّهونهم أحيانًـا نحـو وحَـدات تعانـي مـن نقـصٍ بالقـوى البشـرية، أو يشـجّعونهم علـى اتبـاع تخصّصـات معيّنـة تتماشـى مـع تعليـم المجنّـد وشـخصيته.

وفـي هـذا السـياق، يـدرس القـادة الميدانييـن كل نقـاط قـوى المجنّديـن، ماديًّـا وعقليًّـا. فـإذا كان موهوبًـا بمـادة الفيزيـاء، عندهـا يـدرس المسـارات لـ(سـلاح المدفعيـة)، وإذا كان موهوبًـا فـي الكيميـاء، عندهـا يـدرس المتفجّـرات. بمعنـى إنهـم يتلقّـون تدريبًـا فـي مهاراتهـم تماشـيًا مـع تدريبهـم الأساسـي.

وبمعنـى أدقّ فـإن برنامـج التدريـب العسـكري الـذي يبـدأه كل مجنّـد فـي «حـزب اللـه» لا يحضِّـره لعمليـات قتاليـة مسـتقبلية فحسـب، وإنمـا يسـاعده أيضًـا علـى بنـاء عصبيّـة روح التضامـن، قيمـة معنويـة هامـة فـي الميـدان بالإضافـة الـى الالتـزام العميـق بالدِّيـن الإسـلامي.

إن مـا تتناقلـه أجيـال حـزب اللـه عـن نجاحـات الحـزب العسـكرية، خاصـة خـلال التسـعينات، سـاهمت فـي تعزيـز مـا يسـمّيه مناصرو الحـزب شـعور الأخـوّة والعـزّة الشـعبية، والتأكيـد علـى الإنجـاز والتمكيـن بيـن الكـوادر وهـذا مـا يـؤدّي إلـى تعميـم «مشـاعر تُلهـم أجيـالًا جديـدة مـن المتطوّعيـن لكـي ينضمّـوا الـى الحـزب». وفـق مـا تنقلـه أوسـاط داخـل بيئـة الحـزب.

أنشودة سلام يا مهدي

عـام ٢٠٢٢، تجـاوزت أنشـودة «سـلام يـا مهـدي»[١١] الحـدود الجغرافيّـة والعِرقيّـة والقوميّـة لتُقـارب العالميـة؛ وشَـكلت فـي لبنـان دلالـة علـى حجـم التعبئـة والانتمـاء داخـل بيئـة حـزب اللـه.

سلام فرمانده

عهدًا منّا ... يا سفينةَ النجاةْ

عهدًا منّا ... أنْ نقاومَ الطغاةْ

عهدًا منّا ... صاحبَ الزمانْ

نحن جندُ السيدِ القائد ... يا عينَ الحياةْ

عهدًا نبقىٰ ... مقاومينْ.

إلّا أن الأبـرز فـي الأنشـودة كان اعتمـاد كلمـة فرمنـده بالفارسـية، وتشـديد الأطفـال علـى مبايعـة الولـي الفقيـه جهـارًا بمقولـة «نحـن جُنـد السـيد القائـد".

عـام ٢٠٢٢، انتشـرت أُنشـودة «سـلام يـا مهـدي» انشـارًا كبيـرًا فـي كل البلـدان التـي يمتلـك فيهـا الشـيعة الذيـن يُدينـون بالـولاء إلـى

(١١) سـلام فِرْمَنْـدَه أو سـلام يـا مهـدي (سـلامٌ أيهـا القائـد) هـي انشـودة مخصصـة للاطفـال وتـدور حـول موضـوع الامـام المهـدي والعهـد والـولاء لـه وقـد أُطلقـت بنـاءً علـى فِكْـرة المرشـد الأعلـى للجمهوريَّـة الإسـلاميَّة علـي خامنئـي، يؤدّيهـا مطربٌ مـع الأطفـال، ويبـدأون بتحيَّـة عسـكريَّة تتكـرَّر كلمـا أُعيـدت لازمـة «سـلام فِرْمَنْـدَه .

فكرة ولاية الفقيه، وشكّلت في لبنان دلالة على حجم التعبئة والانتماء داخل بيئة حزب الله. وبحسب مقال نُشر على «موقع مدارس المهدي»: «تأخذ وسائط التنشئة الاجتماعية في ظلِّ ولاية الفقيه المتصلة بولاية الإمام المعصوم، صبغة مهدويّة متأصّلة، فتصبح مسؤولية الأسرة المهدوية والمدارس المهدوية والإعلام المهدوي والكشاف المهدوي... بناء الفرد المهدوي المتحلي بصفات تجعله في دائرة الانتساب الحقيقي لإمام زمانه (ع) والانخراط في مشروعه الكبير والتمهيد لظهوره».

ويُكمل المقال الذي يعكس رؤية حزب الله إلى هذا النشاط، أنه: «إذا نظرنا إلى مشهديّة «سلام يا مهدي» بتوجيه من الولي الفقيه في إيران وما حملته من معاني الولاء، نجد أنها ثمرة لتنشئة وتربية اجتماعية امتدّت لسنوات، بوصفه عقلًا مدبّرًا لحركة الدِّين وديمومة التديُّن وتجلّيه في الأفراد والمجتمعات، الأمر الذي يُلقي مسؤولية أكبر على وسائط التنشئة وأساليب عملها لتكون أكثر قصديًّا وهدفيّةً وتخطيطًا للحفاظ على هذا الإرث من الارتباط بالإمام وترسيخه في نفوس النشء، فيغدو كل فرد ممهّدًا ومنتظرًا حقيقيًّا، له دوره التكاملي والتصاعدي في تعجيل الفرج.

وكان شهر آذار ٢٠٢٣ مركزيًّا في إحياء ذكرى ولادة الإمام المهدي، إذ نظَّم حزب الله و«مركز الإمام الخميني الثقافي» احتفالات حاشدة على مجمل مناطق الانتشار الشيعي بحضور المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية في لبنان كميل باقر زاده وحشدٌ من علماء دين وفعاليات.

أنشودة سلام يا مهدي

لكنّ اللّافت أن هذه الأنشودة، مرّت بحفلات متنقّلة غطّت كل الانتشار الشيعي، إذ أنشد الأطفال «سلام فرمنده» من البقاع إلى الجنوب فبيروت، حتى أنه نُظّمت احتفالية في بلدة المعيصرة قضاء كسروان لاحتوائها على عدد من اللبنانيين الشيعة، وكان الهدف من ذلك، القول إنه أينما وُجد طفل شيعي ستكون هناك احتفالية وأنشودة. في مشهد لمئات الأطفال يصطفّون، ويؤدّون النسخة العربية من النشيد الإيراني، كالذي يؤدّيه الإيرانيون كتحية للإمام المهدي، وينتشر في سائر مدن وقرى إيران، كما راجت فيديوهات للتحضيرات لفعاليات إنشاد النشيد، النسخة اللبنانية في «مدينة الإمام الخميني الشبابية الكشفية» التابعة لـ«جمعية كشافة المهدي» في مدينة زوطر الجنوبية.

دور المسجد

استنادًا إلى قول الإمام الخميني: «كان المسجد الحرام والمساجد في زمن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم، مركزًا للحروب، ومركزًا للقضايا الاجتماعية والسياسية، فلم يقتصر دور مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم على المسائل العبادية كالصلاة والصوم فقط، بل كانت المسائل السياسية أكثر من ذلك وكان يبدأ من المسجد متى ما أراد تعبئة الناس وإرسال الجيوش».

فإن للمسجد دوره الأساسي في تماسُك المجتمع وتقوية الروح الاجتماعية فيه، وبناء الجانب العقائدي لدى الفِتية، فالمسجد عند حزب الله هو منبر للعلم والتبليغ والإعلام أيضًا، فمَن أراد العلم والتعلُّم، عليه أن يُصاحب المسجد، ومَن أراد الهداية عليه أن يتردّد إلى المسجد، ومَن أراد التوبة فبابها المسجد، فالمسجد هو تجسيد للرحمة الإلهية التي تغمر المؤمنين في الدنيا وتكون سببًا لحُسن العاقبة. ففي المساجد يستكمل «حزب الله تنشئة الأجيال الصاعدة» وتوجيههم استنادًا إلى قول الإمام الخميني: «المسجد هو مركز الإعلام والتبليغ». من هنا يُعتبر المسجد مكمّلًا لعملية التنشئة التي بدأت مع مجلة «المهدي»، ومرّت بمدارس المهدي والمصطفى، لتصل إلى الكشافة والتعبئة التربوية.

وللدلالة على دور المسجد، يمكننا العودة إلى مقالة نُشرت في «موقع درج» تحت عنوان: «طفل في معسكر حزب الله»، ينقل عن فتى اسمه حسين أنه «خلال دورة "الأنصار"، تلقّى دروسًا دينية مكثّفة (...) وكنا نذهب كل أسبوع إلى مكان يُحدَّد لنا، كالمسجد، أو المركز أو حسينية. الدروس نحصل عليها من قِبل الشيخ، ويُطلب منّا شراء كتب تعود إلى «سلسلة المعارف الإسلامية»، وهي عبارة عن أربعة كتب: (دروس قرآنية)، و(من زبدة الأحكام)، و(في ولاية الفقيه)، وأخيرًا (في أصول العقيدة الإسلامية)».

وفي هذا السياق، يستغل حزب الله المساجد لتنشئة الأطفال دينيًّا ومن ثمّ تهيئتهم للدخول في التعبئة ثم في الحزب، فليلة كل يوم جمعة يكون هناك موضوعًا للنقاش مع الفِتية الذين يتردّدون إلى المساجد في الأحياء والقرى،

إلى أن أصبحت بعض القرى تعتبر المواظبين على الذهاب إلى المسجد أنهم بشكلٍ أو بآخر سيتأثّرون بعقيدة الحزب. خاصة أنّ رجال الدِّين في غالبيتهم أصبحوا من المتفرِّغين في حزب الله.

كما أنّ خطبة الجمعة أصبحت بمثابة «أمر اليوم الحزبي» الذي يعمَّم على كل المساجد للحديث عنه وفْق ما تراه السلطة المركزية في حزب الله.

السرد الوارد أعلاه يفسِّر الاهتمام بتربية الأطفال وإعادة بنائهم على صورة المشروع السياسي للتنظيم الأب، أي حزب الله. وفقًا لما ورد في مقالة «أطفال حزب الله» في نشرة «فان رقم ٤» الصادرة عن «أمم للأبحاث والتوثيق»: «يقوم حزب الله بتربية الأجيال الجديدة من مناصريه في ثلاث فضاءات: المدارس، الكشافة، المساجد والحوزات الدينية. وتتكامَل هذه الفضاءات في ما بينها لتُصقل الأجيال الجديدة على الصورة التي يريدها الحزب».

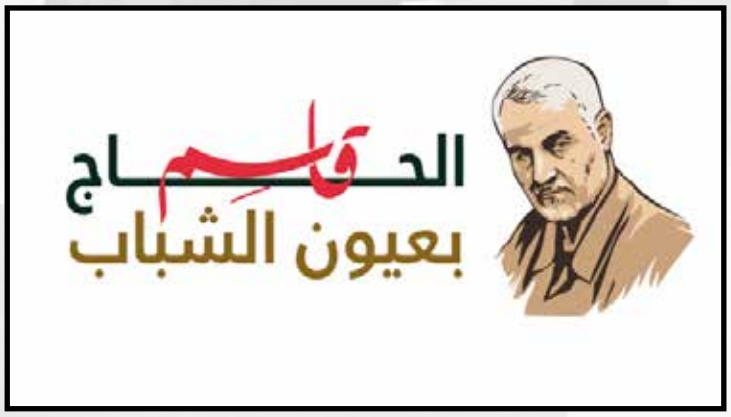

قاسم سليماني بعيون الشباب، المصدر موقع التعبئة التربوية

الحوزة الدينية جبهة الحزب الأولى

اختلف وضع الانخراط في الحوزة العلمية عن السابق، فبعد أن كانت الحوزة العلمية ملاذًا لطالبي التعمّق في الفقه الشيعي، ممَّن تتجاوزت أعمارهم الخمس عشرة سنة، أي الذين تجاوزوا مرحلة التعليم المتوسّط، سيطرت القوى السياسية والحزبية على مفاصل الحوزة العلمية اللبنانية فصار لا يُقبَل في صفوفها الدراسية بين لبنان وإيران إلّا مَن يصدر عنه تقرير من أمن حزب الله، فغدا لا يُقبل فيها إلّا من يُعلِن الولاء أو تكون راضية عنه السلطة السياسية الحزبية الزمنية، ولم يسلَم من هذا الإجراء إلّا بعض العلماء اللبنانيين الذين درَسوا في الحوزة العلمية النجفية زمن نظام صدام حسين، ومَن درس على هؤلاء، ومَن درسوا في الحوزة العلمية الدمشقية، وبعض الذين درسوا على مشايخ مستقلّين... وهؤلاء قلّة قليلة قياسًا على عدد المعمّمين اللبنانيين الحاليين، وهذا الجيش من المعمّمين الذين تمَّ تدريسهم من قِبَل حزب الله في الحوزة العلمية اللبنانية أحكَم سيطرة الحزب على جميع مراكز التعليم الحوزوي في لبنان وإيران، وقد ضاقت دائرة قبول الطلاب اللبنانيين في حوزة النجف الأشرف مؤخّرًا بعد تشكيل لجنة لبنانية لا يُقبل الطالب فيها إلّا من خلالها والمعتمدة من إدارة حوزة النجف المركزية وهذه اللجنة يُقال إنها تخضع لسيطرة حزب الله لبنان حتى لا يتمّ تيسير أمر مَن لا يخضع لإرادة هذا الحزب.

وعليه، أدّت زيادة عدد رجال الدِّين الشيعة الدارسين في الحوزة الإيرانية أو المتأثّرين بها، إلى إعداد قاعدة جماهيرية وتنظيمية شيعية كبيرة مرتبطة بالقيادة المركزية في طهران، من خلال اعتماد تلك القاعدة على إيران في أمور المعتقَد والمعاش اليومي. هذه القاعدة التي ترفُد المجتمع وجمعية التعليم الدِّيني والمؤسّسة الإسلامية للتربية والتعليم بجيش من رجال الدِّين الذين يتولّون زرع بذور قيَم حزب الله ومفاهيم «الثورة الإيرانية»، بين الفتية والشباب.

أولَت الحوزة الدِّينية لدى حزب الله، الفتية اهتمامًا خاصًّا لجهة التربية الإسلاميّة، وأوكلت لمتخرّجيها من رجال الدِّين توعية الشباب على وجوب العبادة والدعاء، وأن يُخصّص ساعة لنفسه في الليل والنهار؛ لكي يناجي فيها ربّه، ويجلي قلبه ويصفّيه.

وذكرت شبكة «المعارف الحكَمية» على موقعها أنه «حينما يترعرع الشابّ في ظلّ عبادة الله وعبوديّة الحقّ، وفي حال ارتبط بالله في مرحلة شبابه وبثّه مكنونات قلبه؛ عندها ستزداد درجاته المعنويّة؛ كالصَّلاة، والصَّوم، وأمثالهما، ولكن من دون استعمال أسلوب الأوامر والنواهي والتسلّط، بل بالترغيب، واللطف، والمحبّة، وأحيانًا بالهدية والجائزة على أداء الصَّلاة أو الصَّوم».

وللدلالة على ما حصدته الحوزة الدِّينية بالنسبة لحزب الله ذُكر في جريدة «السفير»في عدد ٢٦ كانون الثاني ١٩٩٦، أنه «في سنة ١٩٧٤ انبرت ثُلّة مؤمنة للاهتمام بالأبناء تربية وتعليمًا... مدركة أهمية هذا الجانب متعاونة مع علماء الإسلام والمؤمنين لتثبيت الإسلام وتثبيت أركانه. وقد بدأ عمل الجمعية بأربعة مدرِّسين اهتمّوا بالتعليم الدِّيني في سبع مدارس ساعين مع مَن يتجاوب من المؤمنين لتأمين مستلزمات هذا العمل مؤسّسة بذلك ما يُسمى آنذاك بلجنة التعليم الديني الإسلامي.

واستحصلت الجمعية على إذن بالتدريس في المدارس الرسمية سنة ١٩٧٩ من وزارة التربية الوطنية... هكذا أطلق عمل الجمعية ليشمل المئات من المدارس الرسمية والخاصة... وفي المحافظات اللبنانية المختلفة... وحصلت الجمعية على العلم والخبر سنة ١٩٨١ لتصبح بذلك «جمعية التعليم الديني

الاسلامي في لبنان». أما عن الإنجازات، تُضيف الصحيفة: «عملت الجمعية بجدّية عالية للوصول إلى أفضل المستويات وأعلاها وإلى خلْق الأنموذج في كافة مشاريعها لتكون مصدر هداية ورُشد وطريق إصلاح لمجتمعها لذلك". أما لناحية التعليم الديني، فقد أوردت صحيفة «السفير» عن الجمعية: «اهتمامها بالتعليم الدِّيني ليس بإرسال المدرِّس للدراسة وحسب، إنما عمدت إلى تزويده بما يحتاجه من تدريب ومعارف وعلوم عبر الدورات التدريبية والمتابعة المستمرة وكذلك بوضوح المناهج وتأليف الكتب، فكان الكتاب المدرسي الدِّيني الأول: «الاسلام رسالتُنا» لكافة صفوف المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وكذلك وسائل الإيضاح وكافة مستلزمات النشاطات المختلفة».

نصرالله نموذجًا

وللدلالة على أهمية الحوزة الدِّينية بالنسبة إلى حزب الله، لا بدَّ من الإشارة إلى أن أمينه العام السابق الراحل السيّد حسن نصرالله، كان قد التحق بالحوزة العلمية في مدينة النجف في العراق عام ١٩٧٦ عندما كان عمره ١٦ عامًا، وبدأ مرحلة الدراسة الدِّينية، وفيها تعرَّف على السيد عباس الموسوي الذي أصبح لاحقًا أمينًا عامًّا لحزب الله، الذي أشرف على تعليمه وتكوينه.

لقد دفعته المضايقات التي تعرَّضت لها الحوزات الدِّينية في العراق عام ١٩٧٨ من قِبَل النظام العراقي إلى العودة إلى لبنان، فالتحق بحوزة الإمام المنتظَر في بعلبك، وهي مدرسة دينية أسّسها السيد الموسوي، وكانت تعتمد نفس المناهج المتّبعة في مدرسة النجف. بعدها سافر في نهاية الثمانينات إلى إيران لمواصلة تعليمه الدِّيني في مدينة قُم، التي تعدُّ ثاني أهم مركز ديني تعليمي للشيعة، ليعود بعد سنة إلى لبنان.

التربية الإسلامية الحزبية

ليس بعيدًا عن دور المؤسّسات التربوية في بناء المدماك السياسي الأول لتأطير الفتية نحو الانخراط في صفوف حزب الله، بوصفه مرجعية أولى للشيعية السياسية في لبنان، يبرز دور الحزب بصفته مؤسّسة اجتماعية، منضويًا، في نظريته، ضمن أُسس العلم الاجتماعي المعاصر، ليبرهن على أن الحزب السياسي مؤسّسة مجتمعية بامتياز، تؤدّي دورًا أساسيًّا لنوع من التأطير والاستيعاب لدرجة معينة من الوعي، ونتيجة حراك سياسي واجتماعي داخل هذا المجتمع.

من هنا تعدّ التربية الحزبية مفهومًا واحدًا وموحّدًا، يقوم بدور ووظيفة محدَّدتين، حيث تنتقلان لتمارسا التربية السياسية المؤسّساتية، والتي هي نوع من التكوين الصارم، من خلال النشاط التربوي الموجّه للأعضاء المنضوين ضمن الحزب - المؤسّسة وتؤثِّر تاليًا على أداء وسلوك الأفراد فيه، كما تنعكس هذه التأثيرات، على الواقع العام في المجتمع. فالتربية ليست صفة تُضاف إلى الحزب، بل هي المفهوم الأساسي للحزب وهي أهمّ أهدافه.